من أبرز فقهاء الإسلام الكبار

الشهيد الثاني

زين الدين بن علي الطّلّوسي الجُبعي العاملي ٩١١ – ٩٦٦هـ

بلدة طلوسة العاملية

هو الشيخ زين الدّين بن علي الجُبعي الطّلّوسي العاملي (٩١١ – ٩٦٦هـ) المعروف بالشهيد الثاني، من فقهاء الإماميّة في القرن الهجري العاشر.

ولد في ١٣ شوال ٩١١هـ في قرية جبع (جباع) العامليّة.

أصل عائلته من قرية طلّوسة، لكنّ والده توطّن جبع فأصبحت موطنه الأصلي، كما نصّ على ذلك الشهيد نفسه.

ختم القرآن الكريم وهو ابن تسع سنين، وقرأ بعد ذلك العربيّة والفقه على أبيه الفاضل الشيخ علي بن أحمد، المعروف بابن الحجّة. وكان من جملة ما قرأ عليه اللمعة للشهيد الأوّل والمختصر النّافع للمحقق الحلّي.

سنة ٩٢٥هـ توفي والده، فانتقل الشهيد إلى بلدة ميس حيث قرأ شرائع الإسلام والإرشاد وقواعد الأحكام على زوج خالته و والد زوجته ـ لاحقاً ـ المحقّق الميسي المدفون قرب تبنين العامليّة في المقبرة المعروفة باسم «صدّيق».

في أواخر سنة ٩٣٣هـ، قصد شيخنا الشهيد كرك نوح من قرى بعلبك، فقرأ على السيد حسن بن جعفر الأعرجي في الكلام وأصول الفقه وغيرهما من الفنون، ثمّ عاد بعد ذلك إلى موطنه جبع: «وأقمتُ بها مشتغلاً بمطالعة العلم والمذاكرة إلى سنة ٩٣٧»، كما صرّح هو رضوان الله عليه في ترجمته لنفسه.

دمشق

وفي السّنة المذكورة، خرج إلى دمشق ودرس فيها من كتب الطّبّ والهيئة وحكمة الإشراق على الفيلسوف الإمامي شمس الدّين محمد بن مكّي (ت ٩٣٨)، وهو غير الشّهيد الأوّل (مق ٧٨٦هـ) وإنْ اشترك معه في الإسم واللقب وإسم الأب، كما قرأ الشاطبيةَ في علم قراءات القرآن الكريم على الشيخ أحمد بن جابر الإمامي.

مصر والحجاز

رجع الشهيد إلى جبع سنة ٩٣٨ وبقي فيها حتى مطلع العام ٩٤٢ تاريخ خروجه إلى مصرٍ حيث مكث ستة أشهر، حضر خلالها دروس ثلاثة عشر شيخاً من مشايخها في الفقه والهندسة والجبر والهيئة وغيرها من الفنون والعلوم.

في شهر شوال من العام التالي قفل عائداً إلى جُبع، وفي طريقه إليها مرّ بالحجاز وقضى مناسك الحجّ والعمرة وزيارة النّبيّ وآله صلوات الله عليهم أجمعين.

بيت المقدس

سنة ٩٤٦هـ سافر الشهيد إلى العراق لزيارة الأئمة عليهم السّلام، ثمّ عاد إلى جبع وبقي فيها حتى ذي الحجّة من العام ٩٤٨ تاريخ سفره إلى بيت المقدس.

يقول رضوان الله عليه: «واجتمعت في تلك السَّفرة بالشيخ شمس الدين بن أبي اللطف المقدسي، وقرأت عليه بعض صحيح البخاري وبعض صحيح مسلم وأجازني إجازة عامّة، ثمّ رجعت إلى الوطن الأوّل المتقدم وأقمت به إلى أواخر سنة إحدى وخمسين [٩٥١] مشتغلاً بمطالعة العلم ومذاكرته مستفرغا وسعي في ذلك».

تركيا

وفي ذي الحجة من هذه السّنة، خرج المقدّس الشهيد إلى تركيا، فدخل القسطنطينة في ربيع الأوّل من العام ٩٥٢.

كانت العادة آنذاك تقضي أن يأخذ العالم المسافر إلى العاصمة عرضاً (تعريفاً) من قاضي بلاده، وكان قاضي صيدا واسمه «معروف» يكنّ الحسد والضّغينة للشيخ الشهيد، فلم يشأ الشهيد أن يأخذ منه عرضاً، ولم يرد أن يسافر من دون أن يُخبره بسفره، فأوفد إليه تلميذه ابن العودي ليُعلمه بالأمر فحسب، من غير أن يطلب تعريفاً به.

لم يجتمع بأحدٍ من الأعيان لدى وصوله إلى تركيا، بل تفرّغ مدّة ثمانية عشر يوماً لكتابة رسالة تشتمل على مباحث جليلة في الفنون العقلية والفقهية والتفسير وغيرها. فلمّا فرغ منها إجتمع بأحد فضلاء القسطنطينة، وعندما علم الأخير أنّه لا يحمل عرضاً من قاضي بلاده قال له: «أمرك مشكل، يحتاج إلى تطويل زائد». حينها أخرج الشهيد الرّسالة المذكورة وقال: «هذا عرضي»، فنظر فيها الرّجل وقال: «لا تحتاج معها إلى شيء»، ثمّ أوصلها إلى قاضي العسكر فاستحسنها أيّما استحسان وبالغ في تكريم الشهيد والثّناء عليه عند السّلطان سليمان، وعزم على أن يولّيه الإشراف على المدرسة النّوريّة في بعلبك، فتمّ ذلك في فترة وجيزة جدّاً بكتاب من السلطان نفسه.

بعلبك

خرج الشهيد الثاني من تركيا في شهر رجب من العام ٩٥٢هـ قاصداً بعلبك، وفي الطريق إليها زار العتبات المقدّسة في العراق وأدرك زيارة عرفة في كربلاء المقدّسة والغدير في النّجف الأشرف. وفي منتصف شهر صفر من العام التّالي كان وصوله إلى بعلبك حيث بقي نحواً من سنتين.

يقول رضوان الله عليه عن إقامته في بعلبك: «ثم أقمنا ببعلبك ودرّسنا فيها مدّة في المذاهب الخمسة وكثير من الفنون وصاحَبنا أهلها على اختلاف آرائهم أحسن صحبة وعاشرناهم أحسن عشرة وكانت أياماً ميمونة وأوقاتا بهجة ما رأى أصحابنا في الاعصار مثلها».

ويقول تلميذه ابن العودي في ذلك: «كنت في خدمته تلك الأيام، ولا أنسى وهو في أعلى مقام ومرجعُ الأنام وملاذ الخاص والعام ومفتي كلّ فرقة بما يوافق مذهبها، ويدرّس في المذاهب كتبها، وكان له في المسجد الأعظم بها درس مضافاً إلى ما ذُكر، وصار أهل البلد كلّهم في انقياده ومن وراء مراده (....) ورجعت إليه الفضلاء من أقاصي البلاد، ورقى ناموس السّادة والأصحاب في ازدياد...».

لكنّ «إمامة» الشهيد الثاني ـ لا سيما لأتباع المذاهب ـ لم تَرق للحسّاد والمتعصّبين، فاضطُر رضوان الله عليه إلى مغادرة بعلبك في أواخر العام ٩٥٤ أو مطلع العام ٩٥٥.

ويظهر ممّا كتبه تلميذه ابن العودي أنّ خروجه منها إلى جبل عامل، جاء نتيجة التّضييق عليه وإحاطته بالعيون والجواسيس. ويعتقد بعض المؤرّخين أنّ قاضي صيدا المذكور، كان له يدٌ في العَنت والضغط عليه رحمه الله وهو الذي سعى أخيراً لقتله.

ظروف الشّهادة

المؤكّد أنّ الشّهيد الثاني رضوان الله عليه بقي متخفيّاً مدّة من الزّمن بعد خروجه من بعلبك. يؤكّد ذلك ما صرّح به تلميذه ابن العوديّ حيث يقول: «أخبرني قدّس الله لطفه وكان في منزلي بجزّين متخفيّاً من الأعداء ليلة الإثنين حادي عشر شهر صفر ٩٥٦...».

يعتقد بعض المؤرّخين أنّه أمضى نحواً من عشر سنوات متخفيّاً عن الأعداء، أي منذ خروجه من بعلبك سنة ٩٥٥ حتى ذي الحجّة من العام ٩٦٥ تاريخ اعتقاله في المسجد الحرام أو في الطريق إلى مكة.

وعلى الرّغم من كثرة ما قيل عن ظروف استشهاده رحمه الله، إلاّ أن الأقرب للصّواب ـ والله العالم ـ هو أنّ الشّهيد كان ذا همّة عالية وعلم جمّ وحسٍّ سياسيّ مميز، فبدأ نجمه يلمع حتى أصبح قطباً للنّاس ومحطّ آمالهم ومشتكى آلامهم، فأثار ذلك حفيظة أصحاب مراكز النّفوذ المبنيّة على شفا جرفٍ هار، فأجمعت الزّعامات الزّمنية والدّينيّة المتضرّرة، وعلى رأسهم القاضي معروف على تلفيق تهمة له ليتمّ التّخلّص منه. وبعد مراسلات و وشايات أمكنهم تهيئة الجوّ في اسطنبول. لكنّ التّيار الموالي للشّهيد في العاصمة بقيادة عبدالرّحيم العبّاسي، نجح في منع إصدار حكم بقتل الشّهيد وأقنع السّلطان العثمانيّ بالإكتفاء باعتقاله والمجيءً به إلى اسطنبول لمناظرة العلماء في دفع التّهم المنسوبة إليه.

سبب الشّهادة

ترافع إليه شخصان في قضيّة عاديّة وحكم الشّهيد لأحدهما. فذهب المحكوم عليه إلى قاضي صيدا معروف شاكياً الشهيد الثاني.

كتب القاضي معروف إلى الشيخ الشهيد رسالة خاطبه فيها بالكلب الرّافضي، فأجابه الشهيد: «إنّ الكلب معروف».

حينها كتب القاضي إلى السّلطان العثمانيّ أنّه قد وجد في بلاد الشام رجل مبدع خارج عن المذاهب الأربعة، يدّعي الإجتهاد

ويختلف إليه علماء الشيعة وغرضهم من ذلك كلّه هو إشاعة التّشيّع في البلاد. فأرسل السلطان أحد كبار وزرائه وهو رستم باشا في طلب الشيخ الشهيد، ما يدلّ على خطورة الموقف وجديّته.
كان الشهيد الثاني قد غادر جبع للحجّ قبل وصول رستم باشا إليها، وقيل إنّه رضوان الله عليه غادرها متخفّياً.
تفترق المصادر هنا، فمن قائل أنّ الشهيد اعتُقل في الطريق إلى مكّة، فقال لمن جاء في طلبه: تكون معي حتى نحج بيت الله الحرام ثمّ افعل ما تريد، فرضي بذلك. فلما فرغ من الحج، سافر معه إلى بلاد الروم، ولمّا وصل إليها رآه رجل فسأله عن الشيخ، فقال: رجل من علماء الشيعة الإمامية أريد أن أوصله إلى السلطان. فقال: أو ما تخاف أن يخبر السلطان بأنك قد قصّرت في خدمته وآذيته وله هناك أصحاب يساعدونه، فيكون سبباً لهلاكك؟ بل الرأي أن تقتله وتأخذ برأسه إلى السلطان. فقتله في مكانه من ساحل البحر وأخذ رأسه إلى السلطان. فأنكر السلطان عليه قتله الشهيد وقال: أمرتُك أن تأتيني به حيّاً فقتلته؟ وسعى السيد عبد الرحيم العباسي في قتل ذلك الرجل، فقتله السلطان.

الإجتهاد

بلغ الشهيد الثاني رضوان الله عليه درجة الإجتهاد وهو في الثالثة والثلاثين من عمره، لكنه بقي يكتم ذلك لخمس سنوات، حينها شاع امره وأقبل النّاس على تقليده والرّجوع إليه.

الكشف

ينقل الشيخ البهائي عن والده الشيخ حسين بن عبدالصّمد أنّ الشهيد الثّاني أخبره أنّه سيكون تالي الشّهيد الأوّل، وأنّه كان معه في موضع بتركيا فقال الشيخ الشهيد: يوشك أن يُقتل رجلٌ ذو شأن في هذا المكان. ولاحقاً قتل الشهيد الثّاني في نفس المكان. ويُعلّق والد الشيخ البهائي على ذلك بالقول: «وذلك ممّا كُشف لنفسه الزّكيّة».

وفي ترجمة الشّهيد لنفسه، شواهدُ كثيرة تؤكّد أنّه كان من أهل الكشف، على سبيل المثال، يقول الشهيد في سبب ذهابه إلى تركيا
«ثمّ برزت إلي الأوامر الإلهية والإشارات الربانية بالسفر إلى جهة الروم (...) وكان ذلك على خلاف مقتضى الطبع (...) والحمد لله الذي لا ينسى من ذَكره (..) بل يقوده إلى مصلحته ويوصله إلى بغيته».

بلدة جبع العاملية

وتقول الرّواية الثّانية، أنّه رحمه الله أُسِر في مكّة المكرّمة وهو يطوف حول البيت، وما يقوّي هذه الرّواية أنّها منقولة عن خطّ السيد علي الصايغ أحد تلامذة الشّهيد الثّاني.
وفي لؤلؤة البحرين للشيخ يوسف البحراني أنّه قُبض عليه وهو يطوف حول الكعبة المشرّفة بعد صلاة العصر، ثمّ أُخرج إلى بعض دور مكّة وبقي محبوساً فيها أربعين يوما، ثمّ جيء به إلى إسطنبول فقتل على تخومها وبقي جسده الشريف مطروحاً ثلاثة أيام، ثمّ ألقوه في البحر.
وقيل أيضاً إنّه قُتل في قرية بايزيد قريباً من إسطنبول، وكانت هناك جماعة من التّركمان، فرأوا ليلة شهادته أنواراً تنزل من السماء وتصعد إليها من موضع مقتله، فبنوا بذلك المكان مزاراً يُعرف بمزار الدّين.

هنا يرد السّؤال، هل أنّ البُغية هي الشّهادة؟ إنّ ذلك محتملٌ جدّاً.
وفي سبب مغادرته لبعلبك، يقول الشهيد: «ثم انتقلنا عنهم إلى بلدنا بنيّة المفارقة امتثالاً للأمر الإلهي سابقاً في المشاهد الشريفة، ولاحقاً في المشهد الشريف، مشهد شيث عليه السلام...».
ومثل هذه الموارد كثيرة جدّاً في سيرته رضوان الله عليه، سواءً ما ذكره الشهيد نفسه أم ما نقله الآخرون عنه.

تلامذته

من أشهر تلامذته:
– الشيخ حسين بن عبدالصّمد والد الشيخ البهائي.
– الشيخ محمد بن الحسين المشغري جدّ الحرّ العاملي صاحب

وسائل الشّيعة.

محمد بن علي العودي الجزّيني وكان من أخصّ تلاميذه. مدفون على رابية فوق قرية عديسة العامليّة وعلى قبره قبّة ويُعرف بالعويذي، تصحيف العودي.

السيد علي الصائغ والد السيد محمد صاحب مدارك الأحكام. وكان الشهيد دعا الله أن يرزقه ولداً ويكون السيد علي أستاذاً له، فاستُجيب دعاؤه ورُزق بابنه الشيخ حسن صاحب معالم الدّين وقرأ على السيد علي.

مؤلفاته

ناهزت مؤلفات الشهيد الثاني الثّمانين مصنّفاً، جلُّها في الفقه منها:

– مسالك الأفهام إلى تنقيح شرائع الإسلام للمحقّق الحلّي.

– روض الجنان في شرح إرشاد الأذهان للعلاّمة الحلّي.

– الروضة البهيّة في شرح اللمعة الدّمشقيّة. ألّفها في ستّة أشهر وستّة أيّام.

– شروح على ألفيّة الشهيد الأوّل في الصّلاة.

– رسالة في أسرار الصّلاة أسماها التنبيهات العليّة على وظائف الصلاة القلبية وأسرارها.

– آداب الصلاة وهو غير أسرار الصّلاة المتقدّم.

– رسالة في حكم صلاة الجمعة حال الغيبة.

– رسالة في أنّ الصلاة لا تقبل إلاّ بالولاية.

– الأربعون حديثاً في الفضائل، ينقل عنه المحقق الأردبيلي في حديقة الشيعة.

– منية المريد في أدب المفيد والمستفيد وهو كتاب أخلاقي لطلبة العلوم.

– كشف الرّيبة عن أحكام الغِيبة.

– مسكّن الفوائد عند فقد الأحبّة والأولاد، وهو الأوّل من نوعه. وقيل إنّ سبب تصنيفه له هو كثرة ما توفي له من الاولاد حتى لم يبق منهم إلا الشيخ حسن.

– الرّسالة الإعتقادية في معرفة الله وما يتبعها من اصول.

وغيرها كثير.

فسلامٌ عليه يوم ولد ويوم استُشهد ويوم يُبعث حيّا.

مقتطف من رسالته كشف الرّيبة عن أحكام الغِيبة

« ... » فلما رأيت أكثر أهل هذا العصر ممّن يتسمون بالعلم ويتّصفون بالفضل ويُنسبون إلى العدالة ويترشّحون للرّياسة، يحافظون على أداء الصلوات والدؤوب في الصيام وكثيرٍ من العبادات والقربات ويجتنبون جملة من المحرّمات كالزنا وشُرب الخمر ونحوهما من القبايح الظاهرات، ثم هم مع ذلك يصرفون كثيراً من أوقاتهم ويتفكّهون في مجالسهم ومحاوراتهم ويغذّون نفوسهم بتناول أعراض إخوانهم من المؤمنين ونظرائهم من المسلمين ولا يعدّونه من السيئات ولا يحذرون معه من مؤاخذة جبار السماوات. والسبب المقدم لهم على ذلك دون غيره من المعاصي الواضحات، إمّا الغفلة عن تحريمه وما ورد فيه من الوعيد والمناقشة في الآيات والروايات، وهذا هو السبب الأقلّ لأهل الغفلات. وإمّا لأنّ مثل ذلك في المعاصي لا يخلّ عرفاً بمراتبهم ومنازلهم من الرياسات لهوان هذا النوع من المنكر على من يرومون المنزلة عنده من أهل الجهالات. ولو وسوس إليهم الشيطان أن اشربوا الخمر وازنوا بالمحصنات ما أطاعوه، لظهور فُحشه عند العامة وسقوط محلّهم به لديهم.

ولو راجعوا عقولهم واستضاؤوا بأنوار بصائرهم لوجدوا بين المعصيتين فرقاً بعيداً وتفاوتاً شديدا، بل لا نسبة بين المعاصي المستلزمة للإخلال بحقّ الله سبحانه على الخصوص وبين ما يتعلق مع ذلك بحقّ العبيد، خصوصا أعراضهم، فإنها أجلُّ من أموالهم وأشرف. ومتى شَرُف الشيء، عَظُم الذنب في انتهاكه.

وقد قال بعضهم، أدركْنا السّلفَ لا يرون العبادة في الصوم ولا في الصلاة، ولكن في الكفّ عن أعراض الناس. واعلم أنّ السبب الموجب للتشديد في أمر الغِيبة وجعلها أعظمَ من كثير من المعاصي الكبيرة، هو اشتمالها على المفاسد الكليّة المنافية لغرض الحكيم سبحانه وتعالى، بخلاف باقي المعاصي المستلزمة لمفاسد جزئية.

بيانُ ذلك: أنّ المقاصد المهمّة للشارع اجتماعُ النفوس على همٍّ واحد وطريقة واحدة، وهي سلوك سبيل الله بسائر وجوه الأوامر والنواهي. ولا يتمّ ذلك إلّا بالتعاون والتعاضد بين أبناء النوع الإنساني، وذلك يتوقف على اجتماع همّهم وتصافي بواطنهم واجتماعهم على الإلفة والمحبة حتى يكونوا بمنزلة عبد واحد في طاعة مولاه. ولن يتم ذلك إلاّ بنفي الضغاين والأحقاد والحسد ونحوه. ولمّا كانت الغيبة من كلّ منهم لأخيه مثيرةً لضغنه ومستدعيةً منه بمثلها في حقّه، لا جرم كانت ضدّ المقصود الكلّي للشارع، وكانت مفسدةً كليّة، فلذلك أكثر الله تعالى ورسوله ﷺ من النّهي عنها والوعيد عليها.

بتصرّف يسير.